

السيرة النبوية وأثرها في بناء المشروع الحضاري

الأستاذ بومدين ديداني

إمام أستاذ رئيسي سعيدة

بوعيه المحدود على فهم خبايا الكون والحياة والتاريخ والوجود، ولهذا فقد وهبه الله خيرا آخر، فضلا عظيما من أفضاله وهو «علم النبوة» الذي انبثقت عنه مناهج الهداية التي حملها الوحي الأعلى إلى الأمم والشعوب كافة عن طريق الأنبياء والرسل -صلوات الله عليهم أجمعين- ثم شاءت إرادة الموالى سبحانه أن يختم علو النبوة بالرسالة المحمدية التي أعطت للاستخلاف مضمونا عالميا شموليا وبعدا دعويا هاديا.

وقد استطاع النبي ﷺ برسائلته الخاتمة أن يبني حضارة وأن يقدم للبشرية جمعاء نموذجاً لتغيير حضاري

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين

أما بعد: فلقد خلق الله -تعالى- الإنسان وكرمه وفضله وأمدّه من علمه، وسخر له الأرض ذلولا، والكون خدوما، ووهبه العقل والتدبر والنظر، وأعطاه حياة ووقتا، ثم كلفه برسالة الاستخلاف في الأرض، ولكن الإنسان وهو يتفاعل مع الحياة ومشكلاتها والكون وأسراره والتاريخ وسننه بحاجة إلى مرشد يبصره بطريق الحق، ونور يدلّه على معالم الطريق، إذ العقل البشري لا يقوى وحده على إدراك سنن الخير وسنن الشرّ، ولا يقدر

إنساني كَوْن به إنسانا استخلافياً وثقافة إنسانية ومجتمعاً منسجماً، والنَّبِيِّ ﷺ وهو يواجه ظروف بناء الحضارة الإسلامية كان منضبطاً بمنهج تغييري يستمد وجوده ووعيه وأصوله من معيار الوحي الإلهي.

والنّاظر في سيرة الرّسول ﷺ يستطيع أن يحدّد هذا المنهج النّبوي في البناء الحضاري، والذي هو منهج فطري متوافق مع سن الله في الخلق، ومنسجم مع قوانين الدّعوات الإنسانية.

ولقد كان بناء المشروع الحضاري في السّيرة النّبويّة يقوم ويتحرّك وفق دوائر ثلاثة تبدأ بالفرد وتمرّ بالمجتمع أو الدّولة وتنتهي إلى الحضارة التي تغطّي مساحات واسعة من العالم القديم.

أولاً: بناء الفرد

إنّ منهج النّبِيِّ ﷺ في بناء الفرد لم يكن منهج إجبار أو إكراه، فقد بعثه الله

ميسراً غير معسّر، مذكراً غير مسيطر، ولذلك كان منهجه ﷺ في بناء الفرد منهج تربية وتعليم وإرشاد بالكلمة الطيّبة وبالقدوة الصّالحة التي قدّمها النّبِيُّ ﷺ لأُمَّته في حياته ولأجيالها المقبلة من بعده.

ويستوقفنا في نهج النّبِيِّ ﷺ في بناء الفرد أنّه أقامه على أركان وأسس أهمّها:

1 - الإيمان: الذي يولّد في نفس صاحبه معاني العزّة والقوّة والثّقة بالله والاطمئنان إلى جنب الله والأمل في نصره، ويفجّر في نفس المؤمن طاقات كبيرة تدفع صاحبها إلى الجهاد والتّضحّيّة والتحمّل وعمل الخير وتعيّنه على تخطّي العقبات مهما طال الطّريق.

2 - العلم: إنّّه لم يكن من قبل المصادفة أن تحدّثنا أولى آيات الوحي الإلهي عن القراءة والعلم والتعلّم لكي

لأنّهم أصيبوا بالخمول والجمود
فعزفوا عن العمل واستسلموا للراحة،
ففقدوا عزّتهم وسيادتهم.

4 - القوّة: فقد أخبر النّبّي ﷺ
أنّ المؤمن القويّ أحبّ إلى الله من
المؤمن الضّعيف، وكان ﷺ يستعيز
من العجز والكسل، ويطلب المؤمنين
بإيجاد عوامل القوّة التي تحرس الحقّ
وتحمي جهود البناء وتواجه المعتدين
وتحمي الضّعفاء والمقهورين.

5 - الصّبر: لقد ربّى النّبّي ﷺ
أصحابه على الصّبر الذي يجعل المؤمن
يتحمّل ولا يتزعزع أما الابتلاءات
والمحن ولا يبيع دينه بعرض من الدّنيا
قليل، ولا يخون أمتّه تحت أيّ ظرف
من الظروف.

6 - المحبّة: لقد ربط الرّسول
ﷺ أصحابه برباط الحبّ الذي
يوحد المجتمع وجعل انتشار المحبّة
بين الأفراد علامة على تحقّق الإيمان،

تبيّن لنا أنّ الإسلام دين علم وحضارة.
وهذا النّداء «اقرأ» كان الغرض
منه بناء الفرد الأمثل القائد المخاطب
بكلمة «اقرأ»، وبناء الأفراد الآخرين
المرشّحين لحمل الدّعوة وبناء الدّولة
والحضارة عن طريق فكر هذا الفرد
النبي ﷺ وسلوكه.

3 - العمل: إنّ العمل على
طريق الإصلاح والبناء والتّعمير شعار
المسلمين جميعا في القرآن الكريم:
﴿وَقُلْ إِعْمَلُوا فَيَسِيرَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ
وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّوكَ إِلَى
عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 105].

وقد بيّن النّبّي ﷺ أهميّة العمل
وأمر بإتقانه إشارة إلى ما ينتظر الأمتّة
من تحدّيات في عالم يتنافس فيه
الشّعوب بما تنتجه وتصنّعه.

وإنّ المسلمين ما تأخّروا وتخلّفوا
عن مواكبة الحضارة الإنسانيّة إلّا

(الصَّحابة) على أساس النَّمُودَج الحضاري التَّوْحِيدِي، تلك الجماعة التي ستكون قائدة البناء الحضاري الإسلامي الأوَّل والذَّائِدة عن حمى الإسلام ورسالته ومشروعه.

إنَّ التحوُّل الذي أحدثه الرَّسول ﷺ في نفسيَّة صحابته الكرام، هو الذي يفسِّر لنا فيما بعد قدرة المجتمع المسلم على العطاء الإنساني الكبير في مختلف حقول المعرفة البشرية.

فبناء الرَّسول ﷺ للفرد كان مقدِّمة لبناء المجتمع أو الدَّولة الإسلاميَّة بالمدينة النَّبويَّة.

ثانياً: بناء المجتمع (تأسيس الدَّولة)

1 - بناء الدَّولة

لَمَّا هاجر النَّبي ﷺ إلى المدينة عمل على بناء دولة الإسلام الأولى في هذه الرِّقعة المحدودة لتتولَّى الدِّفاع عن

ورَّتَب على ذلك دخول الجَنَّة، ولا شكَّ أنَّ المحبَّة في الله إذا فشت بين أفراد المجتمع كان لها من الآثار والثَّمار ما هو كفيل بتجاوز كثير من الأزمات ووجود التَّسامح في المعاملات.

7 - غرس القيم الأخلاقيَّة: لقد

أمر الرَّسول ﷺ أصحابه بالقيم المثلى والفضائل العالية، وعمل على غرسها فيهم حتَّى تكون شخصيَّة المسلم متَّزنة، فالذي لا تهذبُه القيم متذبذب الأخلاق مشَّت النَّفس تنتابه الكثير من الصَّراعات، قال - تعالى - : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك: 23].

وقد بيَّن هذه الأسس جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه لما وقف أمام النَّجاشي وهو يشرح مبادئ الإسلام.

لقد سعى النَّبي ﷺ في العهد المكيِّ عموماً إلى بناء جماعة إسلاميَّة قاعدية

دين الله وتأمين حرية الدعوة إليه.

وأول إجراء اتّخذه الرسول ﷺ هو بناء مركز الدعوة والدولة، ففي قباء أسّس مسجد قباء وهو أول مسجد للمسلمين، وفي المدينة أسّس مسجده الشريف، وغدا المسجد مكان العبادة ومركز القيادة، تتم فيه الاجتماعات واللقاءات وتُعقد فيه الندوات والمحاضرات، وتتم فيه الشؤون وتنظيم أمور المسلمين، وتُعقد فيه الأولوية وتنطلق منه الجيوش.

ولما كان مجتمع المدينة ليس إسلاميًا خالصًا، وإنما فيه المشركون وفيه اليهود فقد عمل ﷺ على تنظيم المجتمع وفق مستويين

المستوى الأول: تنظيم العلاقة الخاصة بين المسلمين بعقد الأخوة، الذي أخى فيه بين المسلمين اثنين اثنين.

المستوى الثاني: تنظيم العلاقات

العامة بين جميع سكّان المدينة من مسلمين ويهود ومشركين بالوثيقة التي أمر بكتابتها والتي يعتبرها المؤرخون أول دستور إسلامي، حيث نظّمت فيها العلاقات المتبادلة على أساس من الحرية والعدالة مع تمايز الفئات اقتصاديًا واجتماعيًا، وجعل مرجعية الحكم إسلامية «لله ورسوله».

2 - حماية الدولة

أعدّ الرسول ﷺ المسلمين عسكريًا لحماية عقيدتهم ودولتهم، وسيّر السرايا لتحذير المشركين من مهاجمة المدينة، ثم كانت المواجهة كالاتي:

أ - السرايا: وهي بعوث عسكرية تدريبية محدودة مهمتها استطلاعية وقائية، أسندت قيادة كل منها لأحد الصحابة وبلغ عددها على الرَّاجح 52 سرية.

وثلاثين قبيلة من جميع أرجاء الجزيرة، وأرسل مع كل قبيلة من يعلمها الإسلام ويزيل من بينها الأوثان.

وهذا استطاع النَّبِيُّ ﷺ أن يقيم دولة الإسلام والتي استطاعت أن تدفع بمشروع الإسلام إلى عالم الحضارة، والتي بقيت أكثر من عشرة قرون كاملة تساهم في إثراء مسيرة الإنسانية بالعلم والانجازات الحضارية المتنوعة التي ساعدت في وقت لاحق الكثير من الأمم لتعيد بناء ذاتها الحضارية.

إننا عندما نتأمل الجهد النبوي نجده فعلاً انصبَّ حول بناء الإنسان والفرد النّمودجي بمختلف صوره، حيث نجد أنّ الرّسول ﷺ وقرّ الجو الملائم لبناء الإنسان الخليفة والدّاعية والعالم والمبلّغ والعسكري والسّيّاسي والمجاهد والقاضي والتّاجر والفيلسوف والمترجم والطّبيب والمسلم الواعي الذي يدافع عن الإسلام ويندو

ب - الغزوات: وهي حملات عسكرية منظّمة، مهمّتها قتاليّة، قاد الرّسول ﷺ معظمها، وتمّت مع أربع فئات: قريش، يهود، القبائل المعادية والرّومان.

3 - نشر الدّعوة:

كانت الدّعوة مستمرّة بالجهود الدّعوية التي يقوم بها الرّسول ﷺ والمسلمون، ولكن الرّسول ﷺ الذي أرسله ربّه للنّاس كافّة عمل على توسيع آفاق نشر الدّعوة فقام بإرسال عشر رسائل إلى قادة بعض الدّول يدعوهم إلى الإسلام وإلى الأمراء العرب الذين لم يدخلوا في الإسلام، إلّا أنّ القبائل العربيّة حسمت أمرها بعد فتح مكّة وأثرت مسالمة النَّبِيِّ ﷺ والمسلمين والدّخول في الإسلام، وجلس النَّبِيُّ ﷺ لاستقبال وفودها والرّدّ على استفساراتها وتوضيح المفاهيم الإسلاميّة لهم، فاستقبل وفود اثنتين

نموذج من الجيل الذي ربّاه رسول
الله ﷺ

لنأخذ نموذجا من التّماذج البشريّة
التي تخرّجت من مؤسّسات البناء
الحضاري التي كان يشرف عليها رسول
الله ﷺ

جاء في كتاب البداية والنهاية:1
«أرسل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه
رستم قائد الجيوش الفارسيّة بطلب
منه، فدخل عليه وقد زيّنوا مجلسه
بالتّمازق المذهّبة والزرايى الحرير،
وأظهر اليواقيت واللّآلئ الثّمينة،
والزّينة العظيمة، وعليه تاجه وغير
ذلك من الأمتعة الثّمينة، وقد جلس
على سرير من ذهب، ودخل ربيى بثياب
صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة،
ولم يزل راكبا حتى داس بها على طرف
البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك
الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه
وبيضته على رأسه.

عنه في ساعات الخطر الدّاهم، كما
كان الحال في حروب الرّدة وفي الهجمة
التّتاريّة على العالم الإسلامي.

وهذا الإنسان المنسجم مع الخطاب
الإلهي هو الذي بنى المجتمع الإسلامي
العادل وشيّد ثقافته الحضاريّة
التّوحيدية.

والفرد الذي كوّنهُ رسول الله ﷺ
هو الذي دفع بالمجتمع الإسلامي الوليد
إلى عالم الحضارة، وعندما توقّفت
رسالة هذا الإنسان، ولم تستطع
الأجيال المتعاقبة تجديد العهد بهذه
النّوعيّة من البشريّة الرّاقية نزل
المجتمع الإسلامي إلى مستوى دون
المستوى الأوّل وأصبح في عهد التخلّف
الحضاري.

فقالوا له: ضع سلاحك. فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت.

فقال رستم: ائذنوا له، فأقبل يتوگًا على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها، فقالوا له: ما جاء بكم؟ فقال الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله.

قالوا: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي.

فقال رستم: قد سمعت مقاتلكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟ قال نعم! كم أحب إليكم؟ يوماً أو يومين؟ قال: لا، بل حتى

نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا.

فقال: ما سنّ لنا رسول الله ﷺ أن تؤخّر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل، فقال: أسيدهم أنت؟ قال: لا! ولكن المسلمون كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم.

فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال: هل رأيتم قطّ أعزّ وأرجح من كلام هذا الرجل؟

فقالوا معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا وتدع دينك إلى هذا الكلب، أما ترى إلى ثيابه؟ فقال: ويلكم لا تنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة.

إن العرب يستخفون بالثياب والمأكّل، ويصنون الأحساب. "اهـ

إنّ هذا الإنسان الجديد (ربيعي ﷺ) هو منتج من منتجات المدرسة

بن أبي طالب عليه السلام من قبله بسنوات
أمام النجاشي.

ولنا أن نقارن المواقف للتعرف
على مدى التطابق الذي يعبر على
نفس النموذج الذي أخرجته المدرسة
النّبوية، مع مراعاة الفارق الزمني،
فجعفر عليه السلام كان في العهد المكي وربيعي
عليه السلام كان في العهد المدني.

وفي هذه القصّة يأتي رستم ليحكم
على هذه النّوعيّة البشريّة الراقية
التي تغيّرت معالم نفسيّتها وعقليّتها،
فتغيّرت معها الكلمة والسّيرة واللّهجة
والهدف، فقال: «ويلكم لا تنظروا إلى
الثياب، وانظروا إلى الرّأي والكلام
والسيرة»، وكأنّ رستم في تلك اللّحظة
أدرك جوهر التحوّل وأصل التّغيير،
وأحسّ بأنّه يتحدّث مع نموذج بشري
آخر، لم يعهده من قبل في حياة الأمم
السّابقة.

إنّ هذا التحوّل في الأفراد يعبر عن

النّبويّة، وإنّ كلامه يقدّم لنا صورة
لجنديّ بسيط في مؤسّسات البناء
الحضاريّ ففي قوله «إنّ الله ابتعثنا
...» هو مؤمن بهذه المنظومة الجديدة
من الأهداف ومجاهد من أجل تبليغها
للنّاس، ورغم أنّه كان في موقف زينت
له فيه الدّنيا وأعدّت خصيصاً لإغرائه
وإذهاله، ولكن على العكس أذهلها
وأذهل أصحابها، فقد استحقّر كلّ
ذلك العالم من الأشياء الماثلة أمام
عينيه، ففي هذه اللّحظة الجماليّة
الحضاريّة أعطى موقفه التّاريخي
الخالد، وبرهن على ارتباطه بأهدافه
ورسالته ورعيه العميق لها وأبان مدى
مسؤوليّاته الكبيرة التي تفرض عليه
أن يؤدّي واجبه كممثل حضارة، لا
كمجرّد مبعوث من قبل قائد إسلامي،
فهو يعيش في موقف فرض عليه أن
يلخّص فيه رسالة الإسلام في كلمات
واضحة ومفهومة بعيدة عن التكهّن
والتّفلسف والخلط، كما فعل جعفر

نظرات جديدة لسيرته ﷺ ، كأنّ حياته
الزّكيّة نهر من معاني العظمة دائم
التدفّق.

الهوامش:

1 - ابن كثير، البداية والنهاية: 6/ 47

عظمة الإسلام ورسالته وأهدافه،
وعن التّربيّة النّبويّة المستقيمة وعن
البعد الحضاري للسّيرة النّبويّة.

لقد تخرّجت أمثال هذه النّماذج
تحت الرّعاية الخاصّة للرسول ﷺ
وبنائنه الحضاري للقدرات الفهميّة
والقدرات الرّوحيّة والقدرات العلميّة
والقدرات الجهاديّة.

وفي الأخير: إنّ سيرة النّبي ﷺ كانت
تهدف إلى صنع حضارة جديدة متفردة
بخصائصها، تبدأ بتربية الفرد، ثمّ بناء
الدّولة لتنتهي بإقامة حضارة متكاملة
يعمّ خيرها النّاس جميعا وتشمل
برحمتها وإنسانيّتها البشريّة جمعاء.

ولا توجد سيرة حظيت بعناية الفكر
البشري سواء من أتباعها أو أعدائها
مثل العناية التي حظيت بها سيرة
رسولنا ﷺ بحيث أنّنا لا نرى كاتباً على
امتداد العالم الإسلامي نال احترام
التّاريخ وتقدير القراء إلّا إذا كانت له